معهد الحياة ورسالته

افتتاحية بقلم رئيس المجلَّة، فضيلة الشيخ شريفي سعيد ابن بالحاج (الشيخ عدون)[1].

صدر العدد الأوَّل من هذه الدوريَّة بعد أن عُرض عليَّ كتابة الافتتاحية، فأبيتُ ورفضتُ، فألحُّوا وأصررتُ، لا فراراً من واجب يتعيَّن عليَّ أداؤه، ولا زهداً في هذا المشروع الذي أراه من أوكد الواجبات؛ ولكن خوفاً من أن أقصِّر في تأدية هذا الواجب، وأحطَّ من قيمته التي أريد أن تكون لها المكانة العليا في النفوس؛ فعرضتُ الأمر على الابن العزيز الأستاذ حمُّو فخَّار، المتمكِّن في التفكير والأدب، والذي له قلم جوَّال في كثير من المجالات، التي هي ميدان عملنا الإصلاحيّ، وقبل ذلك في ميدان هذه الدوريات التي كانت محليَّة، لا تتعدَّى دائرة المعهد، بما فيه من طلبة يتدرَّبون وأساتذة يوجِّهون، تُخطُّ باليد ولا تُطبع -عرضتُ على هذا الكاتب الضليع القيامَ بهذا الواجب، فتثاقل وتهرَّب واعتذر، فعزمتُ عليه تكليفا أن يفعل فيما وسعه، إلى أن لبَّى الطلب مشكوراً، فكتب افتتاحيَّة رائعة، تحلَّت بها المجلَّة وازدانت، فذكَّرنا بعهود سلفت، وذكريات أيَّام كان فيها للأدب سوق رائجة، وعطاء مستفيض، يشهد به من عاش تلك الأيَّام الزاهرات، ويتمتَّع بها من جنى من تلك الثمار اليانعات؛ فكان لكلٍّ من الافتتاحية والمجلَّة الصدى المرجوُّ، والإقبال المنشود، والاستبشار بهذا المولود الجديد الذي سيترعرع ويشتدُّ عوده، ويزدهر، ويؤتي أكله كُلَّ حين بإذن ربِّه وعونه، تحت رعاية معهد الحياة، ومريديه، والمتعاطفين عليه، إذا استمرَّ على الطريق وسار على الدرب.

كانت هذه البشرى تملأ قلوب المتعطِّشين إلى مواردها، والمتطلِّعين إلى ما يتبعه من عطاء موصول غير مقطوع، وكلُّهم فرحٌ بها راضٍ بمسلكها ومحتواها، ما عدا كبيرهم[2] الذي يتلاقى معهم في كلِّ ذلك، إلاَّ أنَّه أبى إلاَّ أن تكون الافتتاحية لهذا العاجز البالغ من الكبر عتيا، والذي أثقلت كاهلَه التسعون وتوابعُها، وبينه وبين أن يطرق باب المائة خطوات قلائل، إن أمهله الأجل، وإن كان - والحمد لله - لم يسأم بعدُ تكاليف الحياة كما سئمها صاحب الثمانين، ولم تحوجِ سمعه إلى ترجمان كما أحوجت صاحبها بعده؛ والذي كان عهده بالكتابة قديما، قد جاوز نصف القرن، وكان يكتب لأجيال وأناس قد يصلح بهم ما كان يكتبه ويقوله، ولزمان لم يكن قد بلغ - نسبيا - مستوى التفكير ما بلغه اليوم قرَّاؤه ومستمعوه، وكانوا يقنعون بما يقرؤون، ويعتبرونه في مستواهم أو فوقه.

قالوا لكبيرهم إنَّا عرضناها

- الافتتاحية - عليه فأبى ورفض كلَّ الرفض.

فقال لهم: مِن طَبعِه أن يرفض، ومن واجبكم أن ترفضوا رفضه.

فجاؤوا لإعداد هذا العدد يهرعون إليَّ، يلحُّون ويشتدُّون، وبيدهم سلاح هذا الكبير يلوِّحون به ويهدِّدون، قائلين: إمَّا أن تكتب شيئا للافتتاحية، وإمَّا أن نُضرب عن العمل، فنبقى مكتوفي الأيدي لا

1- رئيس معهد ومدارس الحياة بالقرارة، ورئيس مجلس عمي سعيد.

2- يقصد به الدكتور صالح خرفي رحمه الله تعالى، وقد كُتبت الافتتاحية قبل وفاته.

نتحرَّك.

فأوقعوني في حرج كبير، ومأزق مظلم، إمَّا أن أخضع لطلبهم على عجزي وضعفي، وعلى قِدم عهدي بالكتابة في هذه النشريات؛ وإمَّا أن أصرَّ على موقفي كما أصررتُ أوَّل مرَّة، والقوم مصرُّون على موقفهم عازمون عليه، فتموت المجلَّة في مهدها، كما ماتت مثيلتها[3] منذ عقود سلفت؛ فأكون المسئول عن هذه النكسة، وعن حرمان المتلهِّفين لمثل هذا النوع من العطاء الوافر، وأنا الحريص على توفيره ونشره، والداعي إليه بكلِّ قوَّة وسبيل...

فلتكن إذن مشيئة الله، ولأخضع لإرادتهم ولإرادة كبيرهم الذي أكبره وأحمل له كلَّ تقدير مضحياً بإرادتي، وليتحمَّلوا مسئولية ما يجدون ويجده القرَّاء في هذه الكلمة من تقصير وتطويل، وضعف العطاء، إن كتب لها أن ترى النور، ورأوا فائدة ما في نشرها، وإن أهملوها فخيرا فَعلوا وصوابا آثروا.

وبعدُ، فأراني - ولا أزال - أطلت في غير نفع، وجعجعتُ من غير طحن، وأطنبت فيما لا يفيد القرَّاء نفعا، وشغلت فراغا عزيزا يجب أن يشغل بما هو أهم وأجدى، فتكون هذه الكلمة مثل غيم المعرِّي الذي قيل فيه سابقا:

والمرء ما لم تُفد نفعا إقامتُه

غيمٌ حوى الشمسَ لم يمطر ولم يَسر

وتلك إحدى الهنات التي أتوقَّعها، وقد أعذر من أنذر.

وبعد، فلأشرع فيما أُرغمت عليه، وأتقدَّم فيه بهذه الكلمة من غير تخطيط، وأعتسف فيها الطريق، كما يتبادر لي، من غير تنسيق.

وليكن الموضوع في هذه المسيرة علاقة هذه المجلَّة بسمِّيها: «معهد الحياة»، أو بتعبير أوضح: **معهد الحياة ورسالته**.

إنَّ الحياة التي توخَّاها المرحوم الشيخ بيوض - الذي أسَّس هذا المعهد، وتفانى في تسييره وتوجيهه، وشرَّفه بهذا الاسم - هي الحياة التي أرادها الله تعالى في قوله: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}**(سورة الأنفال: 24)؛ وفي قوله: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}** (سورة النحل: 97)... في آيات أخر كثيرة ومشابهة ومؤيِّدة، ولا يدعونا الله ورسوله إلاَّ للإيمان الذي يمتزج بشغاف القلب، ويترتَّب عليه العمل الصالح، وبه تزكو النفس وتطهر، وبه تطيب الحياة وتحلو.

تلك هي السعادة التي هام الناس في طلبها من كلِّ سبيل، فأخطأوها فضلُّوا وأضلُّوا.

وهل هنالك سعادة في هذه الحياة أهنأ وأطيب وألذُّ من اطمئنان القلب وارتياح الضمير، مهما احلولك الظلام، وادلهمَّت الخطوب، وتوالت النكبات، ما دام المؤمن الطَّيِّب النفس يطمئنُّ إلى إيمانه بالله العليِّ القدير، وبقضائه وقدره، خيرِه وشرِّه، ويعلم يقينا أنَّه من الله. ورسولُه الأعظم يقول: «*عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ*» (رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق).

3- ويعني بها **مجلة الفكر الإسلامي**، التي صدرت بتاريخ 1284هـ/1964م.
وانظر دورية الحياة، العدد الأول، افتتاحية الشيخ حمو فخار، ص8-9

تلك الحياة التي تشرَّبتها قلوب سلفنا الصالح من أجدادنا الأبعدين، بدءا بالرسول الأعظم، ومرورا بصحابته الكرام من المهاجرين والأنصار، وتابعيهم بإحسان، إلى أجدادنا الأقربين، الذين لقَّنونا معنى هذه الحياة تطبيقا، فتشرَّبتها قلوبنا، فتجسَّدت في هذا المعهد العتيد، الذي هو امتداد لمعاهد سلفت، ولمشايخ كرام سهروا عليها، وجاهدوا في تنقيتها من شوائب لحقتها عبر القرون، فتلقَّاها هذا الجيل نقيَّة صافية، مشرقة ضاحية، راسخة في النفوس، متغلغلة في القلوب، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها.

جاء هذا المعهد فتحمَّل هذه الأمانة بدوره، فطوَّرها وحوَّرها وزكَّاها، في إطار هذه المبادئ الثابتة التي لا تتحوَّل ولا تتغيَّر، وإن حال وتغيَّر كلُّ ما حولها.

هذه الحياة الطَّيِّبَة المطمئنَّة التي أرادها الله لعباده الصالحين، هي التي يتلقَّاها في هذا المعهد كلُّ طالب ساقته عناية الله إلى محرابه، وآوته سعادته إلى رحابه؛ يتلقَّاها بالشرح والتوضيح في أوَّل لحظة يستمع فيها إلى درس الافتتاح في أوَّل كلِّ سنة دراسيَّة، ويتجدَّد ذلك أثناء السنة، بأساليب مختلفة في كلِّ مادَّة أساسيَّة دراسيَّة، تتناول الموضوع مباشرة كالتفسير والحديث والتربيَّة الخلقيَّة، وحتَّى في الرياضيات، وما يتبعها من العلوم التي لا يعدم الأستاذ فيها ثغرة يتسرَّب منها إلى بثِّ هذه الروح، كأن يرى سلوكا من طالب ينحرف فيه عن الجادَّة أدنى انحراف، داخل القسم أو خارجه، فيكون ذلك مدعاة إلى كلمة واعية، أو درس يتلقَّاه الجميع، فيكون له الأثر البالغ في النفوس.

ذلكم هو معهد الحياة، الذي أسِّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان من أوَّل يوم، والذي يتعاطى فيه الطالب العلمَ الذي أراده الله في قوله: **{يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}**(سورة المجادلة: 11).

ويتخرَّج فيه العلماء الذين أرادهم الله في قوله: **{كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}**(سورة فاطر: 28).

ويطبَّق فيه قول الرسول e: *«علِّموا أولادَكم القرآنَ، فإنَّه أوَّل مَا ينبَغِي أنْ يُتعلَّم مِن علمِ اللهِ هوَ»* (رواه الربيع بن حبيب).

وشعاره فيه: «الخلق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد»، متشبِّعا بقول شوقي:

وإذا الأخلاقُ كانت سلَّمـا

نـالت النجمَ يـدُ الملتمس

فارْقَ فيها ترْقَ أسبابَ السما

وعلى ناصية الشمس اجلسِ

وتتصدَّر نشرياته قوله أيضا:

شباب قنَّع لا خير فيهم

وبورِكَ في الشباب الطامحينا

والذي يجعل من مناهجه في التعليم العامِّ، وفي التخصُّص في الشريعة وسيلةً - لا هدفا - لخدمة كتاب الله وسنَّة رسوله، بما فيهما: من عقيدة، وشريعة، ومعاملات، ولسان عربيٍّ مبين؛ ليكون الطالب فيه مؤمنا حَقًّا بهذا الكتاب، متخلِّقا بأخلاقه، منتهجا منهاجه، عاملا لدنياه كأنَّه يعيش أبداً، لأنَّه مأمور بأن يكون خليفة الله في الأرض، يتحمَّل الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان... ويعمل لآخرته في كلِّ لحظة من لحظات حياته، بمقتضى هذا الإيمان، كأنَّه يموت الساعة أو غدا.

وبمقتضاه يسعى لأن يكون فردا ممتازا، إماما للمتَّقين، في خير أمَّة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

وبمقتضاه يعمل لتحقيق وعد الله الذي لا يخلف الميعاد في قوله: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}** (سورة النور: 55)

ونركّز على شرط وفاء الله بوعده على قوله: **{يَعبُدُونَني لاَ يُشرِكُونَ بِي شَيئًا}**.

ونزيد تركيزا أقوى على كلمة «شيئا»، التي تفيد العموم، فتفيد الشرك الأكبر الذي يتبرَّأ منه كلُّ مسلم، والشرك الأصغر الذي لا ينجو منه إلاَّ القليل، والذي قال الله فيه: **{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** (سورة البينة: 5)، وقال: **{أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** (سورة الزمر: 3)، وقال: **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** (سورة الكهف: 110).

وقال فيه الرسول u: *«اتَّقوا هذا الشرك فإنَّه أخفى من دبيب النمل»*.

وما أوتي المسلمون في أدنى الأرض وأقصاها إلاَّ من هذا الشرك الخفيَّ، الذي جعلهم يتنازعون ويتقاتلون على متاع الدنيا من مال وجاه وشهرة وسلطان وحبِّ الذات، ونسوا عبادة الله الخالصة. وما استذلُّوا واستعبدوا ممَّن ضرب الله عليهم الذلَّة والمسكنة وباءوا بغضب منه وممَّن آزروهم وأيَّدوهم، وحملوهم على أكتافهم متناسين ما كان بينهم من عداوة أصيلة وحقد دفين، ليتسنَّى لهم التصدِّي للعدوِّ المشترك؛ فحوَّلوا هذه العداوة وهذا الحقد إلى الإسلام والمسلمين أينما حلَّ وحلُّوا.

قلنا ما استُذلُّوا إلاَّ لَمَّا تنكَّبوا الطريق، وتخلَّوا عن عبادة الله مخلصين، واتَّبعوا أهواءهم، واتَّخذوها آلهة، والله يقول: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** (سورة المنافقون: 8)، ويقول: **{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً}** (سورة النساء: 141). فهل تخلَّى الله سبحانه وتعالى عن هذا الحكم الأزليّ، وهذه الكرامة المثلى، من تكريم المؤمنين بالعزَّة والغلبة، أم أنَّ هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام غير مؤمنين؟!

والجواب يجده كلُّ مسلم في ضميره المنصف، وكلُّ مؤمن بالله واليوم الآخر.

هذا الداء الدوي، وهذا الوباء الفتَّاك... هذا الشرك الخفيُّ المستتر عند الذين لا يفقهون من أمر الدين شيئا، والظاهر الجليُّ عند كلِّ فقيه بصير، هو الذي جعل المسلمين يلهثون وراء الدنيا، ولا يعرفون من الحياة غيرها، وينسون أو يتجاهلون ما وراءها من حياة أبديَّة، وإنَّها للجنَّة أبدا أو النار أبدا.

وليس لهذا الداء من دواء شافٍ كلَّ الشفاء إلاَّ امتثال قوله تعالى: **{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}.**

وكلُّ عمل صالح جاء به المسلم مهما قلَّ وصغر، وحيثما حلَّ ووقع، وأراد به وجه الله، كان دينا خالصا، وعبادة موفورا أجرُها، حاضرا أو آجلا؛ وليس المراد بكلمة الإخلاص التي تجري على الألسنة، وتسيل بها الأقلام، ويراد بها الصدق في العمل وإتقانه، والإتيان به على الوجه الأكمل فحسب، كما هو المفهوم عند أكثر الناس؛ وإنَّما هو توجيه العمل إلى الله مباشرة، طمعا في ثوابه، وخوفا من عقابه، بصرف النظر عمَّا يترتَّب عليه في هذه الحياة من أذى يصيبه، أو بلاء ينزل عليه، وقد يكون ثوابا عاجلا يناله، ويعتبر ذلك فوزا كبيرا حازه، وجائزة منحته إيَّاها يد الله الكريمة، من غير قصد لها ولا انتظار: **{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}**(سورة الصف: 13).

وهذا الدواء الشافي قطعا، ميسَّر لكلِّ مسلم، وفي متناول يد كلِّ مريض - وأكثرنا مرضى به - لا يوجد إلاَّ في صيدلية واحدة، تسمَّى القرآن، مكتوب على واجهتها: {**وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين**} (سورة الإسراء: 82)، و{**يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**} (سورة يونس: 57)؛ وتقدِّمه لكلِّ من يطلبه منها مجانا من غير مقابل، ولا تطلب منه إلاَّ إيمانا بالله وقَر في الصدر وصدَّقه العمل.

وما حلَّ بالمسلمين اليوم من بلاء ونكبات ونكسات وإذلال إلاَّ بانتشار هذا الوباء بينهم، فلو تناولوا هذا الدواء لابتسمت لهم الدنيا، وسيقت إليهم بحذافيرها، ورحَّبت بهم الحياة المثلى، ولكانوا سادة الأرض وملوكها، كما كان أوائلهم الأقدمون: النبيء وصحابته، وتابعوهم بإحسان؛ ولكانوا ربَّانيين سعداء في نفوسهم وأهليهم وأوطانهم، ولوسعتهم رحمة الله التي وسعت كلَّ شيء.

قد يقول قائلون: إنَّ هذه اللغة غريبة عنَّا، لا نحسن سماعها ولا فهمها، ثمَّ إنَّ محلَّها ليس هذه النشريَّة التي يجب
أن تواكب الحياة الحاضرة، وتشتغل بما يشتغل به الإعلام العامُّ من فكر حديث، وإبداع مفيد، وتكنولوجيا باهرة، ولهو وترفيه... الخ.

فنقول: إنَّ الإعلام بأنواعه كلِّها، بما فيه من غثٍّ وسمين، قد ملأ الدنيا بضجيجه، وشغل الناس بجدِّه وهزله وهُزاله، وما زادهم إلاَّ همًّا وشقاءً، وإلاَّ تهافتا على كلِّ شرٍّ، وتسابقا إلى التخريب والدمار، وغفلوا عن الحياة الروحية وتناسوها، فبقيت منبوذة مهجورة مضروبا عليها الحصار من كلِّ جانب. وهل تقوم الحياة بدون روح؟.

وجئنا - نحن - هنا لفكِّ هذا الحصار - بعون الله - وبعث هذه الروح، بجهد المقلِّ واليد القصيرة، والإمكان المحدود: و«*لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها*».

ويقولون: إنَّ مكانها المسجد، لا هذه النشريات.

نعم إنَّ مكانها المسجد حقًّا، ولكن هل قام المسجد بسدِّ هذا الفراغ الروحيّ؟ وهل كان معمورا بجميع المسلمين الذين يُتوجَّه إليهم بهذه الكلمة، وتُغرس في قلوبهم؟ وما نسبة الذين يغشونه ليصلُّوا فيه ويستمعوا لها - إن كان لها صوت فيه - لِلذين لا يغشونه ولا يعرفون إليه طريقا؟ إن لم يكونوا من الذين يسخرون به وبمن يغشاه.

ثمَّ هل كان القائمون بهذا المسجد، الخطباء على منبره، أكفاء لإلقاء هذه الكلمة، مهتمين بها، راسخة في قلوبهم، متجسِّدة في أعمالهم، قبل أن تنطق بها ألسنتهم، لتقع في القلوب كما صدرت منها، ويكونوا القدوة الحسنة؟ ثمَّ هل كانت هذه الكلمة حكرا على المسجد لا تتعدَّاه إلى وسائل الإعلام بأنواعها، وهي اليوم عماد الإنسان المتحضِّر، يتَّسع مجالها لكلِّ طَيِّب وخبيث، ولا يتسع لهذه الكلمة الطيبة، التي يجب أن تتصدَّر كلَّ إعلام، ويعلو صوتها كلَّ صوت، وهي الهمُّ الأوَّل لكلِّ مسلم يؤمن بالله، واليوم الآخر، والمثل الأعلى، والهدي الأسمى، لمن توخَّى أطيب الحياة وأسماها، ويقول رسولنا الأعظم في هذا الشأن، الذي هو رأس الحكمة وأساس الدين: «*تفرَّغوا من هموم الدنيا ما استطعتم، فإنَّه من كانت الدنيا أكبر همِّه فرَّق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، ومن كانت الآخرة أكبر همِّه، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وكانت يد الله إليه بكلِّ خير أسرع*».

ويقول آخرون: هذه أفكار تجترُّونها، وأقوال تلوكها ألسنتكم، وكلمات سئمنا سماعها، فهاتوا بجديد، وتقدَّموا إلى الأمام كما تقدَّم إليه جميع الناس.

ونقول لهؤلاء: هذا كلام الله الذي لا يبلى قدمه، نعرضه عليكم، وعلى جميع الناس، وهذه سنَّةُ رسوله

الكريم، التي تزيده بياناً وتوضيحاً، وتضعه في أرض الواقع تطبيقاً وسلوكاً؛ فإن رأيتموها حقاً وصواباً فاستمعوا لها واتَّبعوها، وكونوا من المؤمنين الذين ينتفعون بالذكرى، ومن الذين قال الله فيهم: {**إِذَا ذُكِرَاللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**} (سورة الأنفال: 2)، وإن لم تكونوا من هذا الصنف، ورأيتموه خطلاً وباطلاً، فأعرضوا عنه، وألقوه وراءكم ظهريا، فلستم مجبرين على سماعه. ولا العمل به، فلسنا نعنيكم، والصنفَ الأوَّل نعني، وقولوا كما قال أسلافكم الأوَّلون: {**إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**} (سورة النمل: 68). ونقول من جانبنا ما قال الله في أمثالنا - ونرجو أن نكون منهم -: {**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**}(سورة القصص: 55).

بعد هذا نعود إلى هذا المعهد الذي طوَّفنا حوله ولم نقع، بل جلنا في صميمه بصورة أوسع.

ويقول آخرون: أين هذا المعهد الذي تشيد بذكره، وتبوّئه المكانة العليا، وتجعله جنَّة مفتوحة في هذه الحياة، فما أثره في دنيا الناس، وما تأثيره في هذا المجتمع المتفكِّك الأوصال، وهذا المحيط الوبيء، والفساد المنتشر فيه، فأين واردوه وروَّاده المتخرِّجون فيه، وأين هم من هذه الأدواء، وما موقفهم منها، وأين تعاليمه ومبادئه، وأثرها في نفوسهم ومجتمعهم ومحيطهم، في مدى عقود من السنين؟.

نقول لهؤلاء المتسائلين: إنَّ التحديات - أوَّلا - أقوى من أن تتصدَّى لها هذه الفئة القليلة، والتيار أجرف من أن تقاومه وتدفعه، والداء أعصى من أن تستأصله وتقضي عليه. ومع كلِّ هذه العوائق نقول لهم - ثانيا -: انظروا ببصيرتكم بعد أبصاركم، وبعقولكم قبل عواطفكم، إلى هؤلاء النماذج التي ترونها بين أيديكم رأي العين، تجدوهم في أغلب مجالات الحياة: أيمَّة ومشايخ في المساجد، هداة مرشدين مبشِّرين ومنذرين، يدعون الناس إلى الله على بصيرة، بسلوكهم وسيماهم قبل أن يدعوهم بألسنتهم وأقلامهم، وفي مجالس مختلفة العناوين للإصلاح العامّ وتدبير شؤون الأمَّة، وتسيير دواليب الحياة من دينيَّة، واجتماعيَّة،وتعليميَّة، واقتصاديَّة، أينما كانوا وحلُّوا، في جنوب الجزائر وشمالها، وشرقها وغربها، وفي غير الجزائر من جيرانها الأقربين والأبعدين...

تجدوهم دكاترة مبرَّزين، وأساتذة متفوّقين في ميدان التربيَّة والتعليم، والصحَّة، ومكاتب الهندسة والمحاماة والعدالة، وغيرها من مقوّمات الحياة...

تجدوهم في الهيئات المنتخبة من مجلس الأمَّة والوطنيّ والمحلّي...

تجدوهم في الإدارات العامَّة سامية كانت أو دنيا...

تجدوهم كتَّابا بارعين، وشعراء نابغين، وخطباء مصاقع، ومؤلّفين متخصِّصين، في أغلب الميادين، وفي طليعتها الشريعة الغرَّاء.

تجدوهم في الإدارات الخاصَّة: من مصانع، ومستودعات، ومتاجر، يسيِّرونها بحكمة ودراية وإخلاص.

تجدوهم عمَّالا نزهاء في كلِّ ميادين الحياة، من تجارة وصناعة وغيرها، كمتربِّصين لِما هو أعلى وأوفر فائدة، وكعملة صعبة يتسابق الناس على احتوائهم والظفر بهم.

تجدوهم في حقول الفلاحة منكبِّين على خدمة الأرض ليل نهار، مقتدين بآبائهم وأجدادهم الأقدمين، الذين استنبطوا المياه بعرق جبينهم من أعماق الأرض، ومن الصخور الصمَّاء، فأحالوا الأرض الجرداء إلى جنَّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان.

تتبَّعوا كلَّ من ينتسب إلى هذه المنطقة النائية في قلب الصحراء التي ترون فيها - في الغالب - ما يسرُّكم من سلوك طَيِّب، وخلق حسن، تجدوه إمَّا متخرِّجا في هذا المعهد العامر، أو في مثله من المعاهد التي تتبنَّى مبادئه ومناهجه، أو في المدارس الابتدائيَّة التي تسير على منهاجه، وتمدُّه بالمادَّة الأساسيَّة التي يصنع منها هؤلاء الرجال، الذين كُنَّا نضفي عليهم هذه الصفات.

قد يقال: إنَّنا نجد كثيرا من المتخرّجين على خلاف ما تصفهم، وتقدِّمهم إلينا كنماذج صالحة.

نعم، نحن لا ننكر الواقع المشهود، ولكنَّا نقول بكلِّ صدق واعتزاز: إنَّهم والحمد لله أقلِّية. ولكن، هل خلا زمان أو مكان من هؤلاء المتنكبّين عن الجادَّة، وهل كانت مدرسة الرسول المعلِّم الأعظم الموحى إليه وحيا ملموسا سالمة من هؤلاء، خالية من منافقين وخونة منحرفين، ناهيك عن غيرها عبر العصور؟ {**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**}(سورة القصص: 56).

يقول الكثيرون ممَّن زاروا المنطقة، واطَّلعوا عن كَثب على ما فيها من أنظمة دينيَّة واجتماعيَّة، ومؤسَّسات علميَّة واقتصاديَّة، ورأوا مجتمعا نظيفا نوعاً ما، فعادوا منه معجبين منبهرين: لِم حجبتم هذا الخير عن بقيَّة إخوانكم في الجزائر، وتركتموه محصورا في هذه الرقعة الضيِّقة من الوطن الجزائري؟.

فقلنا لهم، ونقول: إنَّ هذا الذي تعتبرونه خيراً، منشورٌ بين أيديكم، ترونه رأي العين هنا وهنالك، وفي متناول يد كلِّ من يرغب فيه ويطلبه، وله استعداد لتلقِّيه وتحمُّله، ولبذل ما في طوقه من جهد روحيٍّ وأدبيٍّ، ما وصد بابه عن طالب، ولا منع من تناوله وتعاطيه راغب، إلاَّ إن كان الطلب يتعدَّى حدود الإمكان، ويتجاوز طاقة الاستطاعة.

وقد تقدَّم إليه الكثير من أبناء الجزائر، من غير هذه المنطقة، فتخرَّجوا في هذا المعهد - ولا يزالون فيه - بعد سنوات من التحصيل، مزوَّدين بهذا الخير، فانتشروا في أرجاء الجزائر، وكانوا في زمرة من أضفينا عليهم الأوصاف السابقة.

ثمَّ نقول لهؤلاء اللاَّئمين: كان لدينا نصيب وافر من هذا الخير منشور بين أيدينا، جاءت به جمعيَّة العلماء المسلمين، فشيَّدت المساجد، وفتحت المدارس والمعاهد، وعمرت المساجد والنوادي، ونشرت الصحف، فأنارت بذلك القلوب، وملأتها إيمانا وغيرة وطنيَّة، وحباً للجهاد، فالتقى جهاد هذه الجمعيَّة المباركة بجهاد هذا المعهد على أمر قد قُدر، فعمَّ الوعي الدينيُّ والوطنيُّ الشعبَ الجزائريَّ كلَّه، فتقدَّم مدجَّجاً بهذا السلاح إلى معركة التحرير، فألقى العدوَّ في البحر بكلمة الله، وشعار «الله أكبر»، فكان الله حَقاً أكبر من كلِّ قوَّة في الوجود، مهما عظم شأنها وقوي مِراسها، وكان النصر لله ولرسوله وللمؤمنين الأعزَّاء حين ذاك.

قلنا: كان هذا الخير موفوراً، والجهاد في نشره قويًّا، إبان الاستعمار الغاشم، فلِم وقع التخلِّي عنه، وألقيَ السلاح إثر إيقاف النار مباشرة، وكان الشعار السائد حينئذ، والذي يتغنَّى به الخطباء والمجاهدون: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، واعتبروا الجهاد الأكبر محصورا في تعمير هذه الحياة الزائلة، ناسين أنَّه جهاد النفس الأمَّارة بالسوء، وكبحها عن رغباتها الدنيويَّة التي تصدُّها عن ذكر الله والجهادِ في سبيله، ويصدق في هذا المقام الحديث الذي أوردناه آنفا: *«من كانت الدنيا أكبر همّهِ فرّق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه»* وصدق رسول الله e.

هنالك الكثير مِمَّن يدركون هذه الحقائق، ويؤمنون بها، ويهتمُّون بها كثيرا، ولكن غزاهم الوسط الفاسد، وداهمهم التيار الجارف، ولم يجدوا إلى دفعه من سبيل، وبكلمة صريحة: لم يجدوا في قلوبهم إيمانا قوياً يحملهم على دفعه، كما وجده الآباء الأقربون والأبعدون، وبه عمروا البلاد، ونفعوا العباد، وفازوا بالحسنيين.

ولا شكَّ - بعد هذا - أَنَّ القارئ الكريم المنصف مؤمن بهذه المبادئ، التي هي أساس هذا الدين القويم، وأنَّه يطمح إلى تبنِّيها والسعي إلى تحقيقها في أرض الواقع، فهل من رائد أو روَّاد يتقدَّمون القافلة، ويقودونها إلى الهدف المنشود، وهل من تفكير وسعي إلى بعث جمعيَّة العلماء المسلمين أو ما أشبهها من مؤسَّسات تنسج على منوالها، مع تطويرها ومسايرة الظروف التي لا تعترض مبادئها الأصليَّة، فينشئ مدارس ومعاهد في أنحاء الوطن كلِّه، على غرار هذه المؤسَّسات القائمة في الجنوب أو ما يماثلها، أم نحتاج إلى استعمار جديد يستعبدنا ويسومنا سوء العذاب، لنستفيق على سوطه اللاهب، فننهض إلى طلب العلاج، وتلمُّس طريقه من جديد، وهو أمامنا

لاحب مشرق، فلا نيئس من رَوْح الله، فإنَّه لا ييأس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون، ولا نسبعدنَّ الطريق، فإنَّ المسافة التي تصل بنا إلى الهدف وتقدَّر بآلاف الأميال تبدأ بميل وميلين.

ولا نستبطئنَّ الثمرة فإنَّنا نعمل على مبدأ: «غرسوا فأكلنا ونغرس فيأكلون». على أنَّ الثمرة الحقَّ الخالدة مضمونة عند الله، منذ اليوم، إن أخلصنا له العمل، نجدها يوم تتوفانا الملائكة طيبين، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنَّة بما كنتم تعملون.

إنَّها لدعوة خالصة ملحَّة أتوجَّه بها إلى كلِّ مسلم يجد في نفسه استعدادا لتلبيتها، وكلُّ مؤمن بالله مستعدٌّ لها، فهل من مجيب!